الخليج

كتب و كتاب

8 أكتوبر 2021 22:13 مساء

غنائم الحرب





عن المؤلف



أندرو كوكبيرن
أندرو كوكبيرن صحفي أمريكي من مواليد 1947 ، يعمل محرراً لمجلة «هاربر» في واشنطن. له العديد من المقالات والكتب حول الأمن القومي الأمريكي ويكتب في عدد من الصحف البارزة.

خاضت الولايات المتحدة، في العقود الماضية، الحروب في بلدان عديدة، بحجة الدفاع عن الديمقراطية. شنت الحرب على الإرهاب لحماية الغرب من مخاطر المتشددين. اليوم، يتمركز الجنود الأمريكيون في أكثر من 800 موقع من العالم، ليكونوا حماة سيادة القانون. يشرح أندرو كوكبيرن في هذا العمل بعضاً من النوايا الكامنة وراء رغبات واشنطن القتالية.

لا يمكن فهم آلة الحرب الأمريكية إلا من منظور «العواطف الخاصة» و«المصالح» لأولئك الذين يسيطرون عليها، والقصد بشكل أساسي هو الاهتمام العاطفي بالمال. وفي هذا السياق وسعت واشنطن حلف الناتو، لتلبية المتطلبات المالية العاجلة لشركة تصنيع الأسلحة، فقد كانت عمليات نشر أسطول البحرية الأمريكية في المحيط الهادئ لسنوات، نتيجة إملاءات من مقاول فاسد قام برشوة ضباط رفيعي المستوى، وعلى هذا الأساس وافق كبار قادة المارينز على زيادة عدد القوات في أفغانستان في عام 2017 بحجة «أنها ستفيدنا في وقت الميزانية» كما يقول المؤلف.

تأثير الدوافع الشخصية

بعد سنوات من البحث، يكشف كوكبيرن الحقيقة المُرّة والقاسية لأكبر آلة عسكرية في التاريخ، والخطرة بشكل مرعب، ويتحدث في بداية العمل عن أمثلة تاريخية من أثينا القديمة وكيفية إدارة العملية السياسية والحربية فيها، ليربطها مع الواقع الحربي الأمريكي في الوقت الراهن، قائلاً: «نشأت حروب لا حصر لها، كما كتب ألكسندر هاملتون في القانون الفيدرالي رقم 6، بالكامل نتيجة المشاعر الخاصة؛ الارتباطات والعداوات والمصالح والآمال والمخاوف من الأفراد القياديين في المجتمعات التي هم أعضاء فيها». وكوهم رئيس لهذه الحقيقة المهمة، استشهد بحالة بريكليس، الذي أشاد به باعتباره أحد أعظم رجال الدولة في أثينا القديمة، ممن امتثلوا لاستياء بائعة هوى، على حساب الكثير من دماء وأموال مواطنيه، وهاجموا وسحقوا ودمروا مدينة ساموس قبل إشعال كارثة الحرب البيلوبونيسية (431–404 قبل الميلاد) من أجل تخليص نفسه من المشكلات السياسية في الوطن. لا ينبغي أن يكون مفاجئاً أن هذه النسخة من الأثيني لم يرددها المؤرخون، على الرغم من المصادر الموثوقة التي تدعم رواية هاملتون البليغة. بدلاً من ذلك، يُعزى هجوم بريكليس على ساموس عموماً إلى دوافع أكثر احتراماً، مثل اهتمامه بحماية نظام ديمقراطي في مدينة ميليتوس المجاورة، أو الحاجة إلى الحفاظ على «مصداقية» أثينا كقوة عظمى.

يشير المؤلف إلى أن خوض الولايات المتحدة الحرب العالمية الأولى، أو استعداد جون ف. كينيدي للمخاطرة بدلاً من السماح ببناء قواعد الصواريخ النووية السوفييتية في كوبا، يُعزى دائماً إلى دوافع شخصية يغلب عليها عدم الاكتراث. كما أن التدقيق البحثي يكشف أن ويلسون كان حريصاً على الانضمام إلى القتال، مدفوعاً بالحاجة إلى صرف انتباه الجمهور عن فشله في تفعيل تاريخ الرجل التقدمي، مدعوماً بطموحه الشخصي في رئاسة تسوية ما بعد الحرب. مع نظرة في سجل كينيدي، يرى المؤلف أن رؤيته خلال أزمة الصواريخ الكوبية كانت تحت التأثير السياسي المحلي خاصة قبل انتخابات الكونجرس النصفية الوشيكة.

توسع الناتو

توسع الناتو في أوروبا الشرقية خلال التسعينات، على الرغم من الوعود القوية لموسكو بأنه، كما لخصه اثنان من قيادات الأمن القومي السابقة لمعهد بروكينغز، بهدف الرغبة في «تعزيز» السلام والاستقرار في القارة الأوروبية من خلال دمج الديمقراطيات الجديدة في وسط وشرق أوروبا في مجتمع أوروبي ـ أطلسي أوسع؛ حيث ستظل الولايات المتحدة منخرطة بعمق، كما يقول المؤلف.

يوضح المؤلف هذا التحرك قائلاً: في الواقع، لم يكن الأمر كذلك. كما أوضحت بإسهاب في كتابي «غيم أون»، كانت القوة الدافعة وراء التوسع، والتي ضمنت استيعاب جنون العظمة الروسي وما تبعه من عدم الاستقرار في أوروبا الشرقية للمستقبل المنظور، هي ضرورة فتح أسواق جديدة لشركات الأسلحة الأمريكية، إلى جانب توقعات بمكافأة سياسية للرئيس بيل كلينتون من الكتل الانتخابية ذات الصلة في الغرب الأوسط. تكثر الأمثلة المماثلة، بشكل أكثر وضوحاً وخطورة، في مجال القوات النووية؛ حيث كانت «الاستراتيجية» مدفوعة بلا منازع بالاحتياجات التنافسية للبيروقراطيات المتنافسة وشركات الأسلحة.

ويضيف: «يجد الغرباء عموماً صعوبة في فهم حقيقة أساسية حول الآلة العسكرية الأمريكية، وهي أن كفاءة القتال الحربي لها أولية منخفضة مقارنة مع اعتبارات الميزة البيروقراطية الشخصية والداخلية. سلاح الجو، على سبيل المثال، كما شرحت في عملي «رؤية النفق»، سعى منذ فترة طويلة للتخلص من طائرة «إيه–10 ثاندر بولت الثانية»

التي تعمل بشكل جيد للغاية في حماية القوات البرية. لكن هذه الفاعلية القتالية لا علاقة لها بالخدمة، لأن ازدهارها المؤسسي يعتمد على قاذفات بعيدة المدى باهظة الثمن (وغير فاعلة دائماً) تشكل مخاطر قاتلة على الجنود الأمريكيين والقوات الصديقة، ناهيك عن المدنيين على الأرض».

تأثير المجمع الصناعي ـ العسكري

يرى المؤلف أن القوات المسلحة الأمريكية تنفق مبالغ طائلة على تطوير أسلحة أسرع من الصوت أثبتت عدم جدواها بحجج واهية وزائفة، مفادها أن الروس قد أسسوا ريادة في هذا المجال، مضيفاً: «على الرغم من حقيقة أن مئات الآلاف من المحاربين القدامى في حروب ما بعد 11 سبتمبر/أيلول يعانون إصابات دماغية ناتجة عن انفجار قنبلة ما، فقد أصر الجيش على تجهيز خوذات من جهة مقاول مفضل من المجمع الصناعي–العسكري في الولايات المتحدة. رتب الأسطول السابع للبحرية انتشاره في جميع أنحاء جنوب شرق آسيا بناءً على طلب من المقاول المعروف باسم فات ليونارد، الذي استولى على القادة المعنيين بمساعدة مجموعة من النساء.

ويشير أيضاً إلى أنه «لم تقتصر إغراءات فات ليونارد بالطبع على المسارات الجسدية. كان الضباط الفاسدون يتلقون أيضاً كميات من النقود (مقابل توجيه أساطيل إلى الموانئ؛ حيث كان لديه عقود توريد مربحة)، ما يؤكد المبدأ الخالد القائل إن «تتبع المال» هو أضمن وسيلة للكشف عن الدوافع الحقيقية وراء التدابير والأحداث التي قد تبدو لولا ذلك غير قابلة للتفسير. على سبيل المثال، كان نصف الخسائر الأمريكية في الشتاء الأول من الحرب الكورية بسبب الصقيع، كما علمت من أحد المحاربين القدامى في الصراع، فقد روى كيف أنه في خنادق الخطوط الأمامية المتجمدة، كان الجنود ومشاة البحرية يفتقرون إلى أحذية الطقس البارد اللائقة. وعلى طريقة حرب العصابات، كان الجنود يهاجمون خنادق العدو لسرقة الأحذية الدافئة والمبطنة التي قدمتها القيادة الشيوعية العليا لقواتهم. يقول صديق لي في وصف هذه الحملات المروعة: لم أستطع أبداً معرفة سبب اضطراري، بصفتي أحد جنود أغنى دولة على وجه الأرض، إلى سرقة أحذية جنود من أفقر دولة على وجه الأرض. تستطيع أغنى دولة على وجه الأرض بالطبع شراء الأحذية المناسبة بكميات غير محدودة. كما أنها لم تكن تبخل في الإنفاق العسكري الإجمالي، الذي ارتفع في أعقاب اندلاع الحرب في كوريا في عام 1950. بالنسبة للمراقب العادي، قد يبدو واضحاً أن القتال والإنفاق يرتبطان ارتباطاً مباشراً. ومع ذلك، على الرغم من أن الحرب عملت على تبرير الزيادة الهائلة في الميزانية، فقد تم تحويل الكثير من الأموال بعيداً عن شبه الجزيرة الكورية؛ وذلك بشكل أساسي لبناء أعداد كبيرة من القاذفات النووية «بوينج بي–47 ستراتوجت»، وكذلك المقاتلات المصممة لاعتراض القاذفات النووية المعادية، التي يمتلكها الروس قليلاً، ولا يمتلكها الصينيون والكوريون الشماليون على الإطلاق.

يذكر الكاتب أن سبب هذا التفاوت في تخصيص الموارد يعود إلى صناعة الطيران، فقد أصبحت صناعة الطائرات أكثر قوة وطلباً من صناعة الأحذية، وهذا هو المكان الذي ذهبت إليه الأموال. تكرر هذا النمط بعد نصف قرن عندما دخلت العائلات الأمريكية في الديون لشراء سترات مدرعة وجوارب وأحذية ونظارات للرؤية الليلية للجنود في العراق، حتى عندما تم ضخ نحو 50 مليار دولار في أجهزة للكشف عن قنابل المتمردين ذاتية الصنع بكلفة 25 دولاراً. كانت إحدى هذه الطائرات الهجومية معروفة باسم «لوكهيد إي سي–130 أتش كومباس كول» بكلفة مليون دولار، مزودة برادار مخترق للأرض من المفترض أنه يستطيع الكشف عن القنابل المدفونة. لسوء الحظ، خلصت دراسة متعمقة عن فاعليتها في العراق أجرتها وحدة استخبارات عسكرية في بغداد في إبريل 2007، بعد تحليل مئات الرحلات الجوية، إلى أن النظام «ليس له تأثير في الكشف».

ومن جهة أخرى يقول المؤلف: لعقود من الزمن، وبفضل التجنيد، كان معظم الأمريكيين إما أنهم خدموا في الجيش وإما يعرفون شخصاً ما؛ لذلك كانوا على دراية على مستوى ما بأن الخدمات كانت تعاني عدم الكفاءة البيروقراطية المتعثرة. لكن تلك الأيام قد مرت منذ زمن بعيد؛ لذا فإن الأغلبية العظمى من السكان يجهلون تماماً العالم العسكري، ويعتمدون في معلوماتهم على الصحافة التي في الأغلب ما تكون؛ إذ إنها إما جاهلة بالأمر وإما معرضة للخطر بسبب الحاجة إلى الحفاظ على الوصول إلى مصادر المصلحة الذاتية. يتفاقم هذا النقص في الوعي بسبب النفور من الاعتراض على الادعاءات العسكرية المتعلقة بالتكنولوجيا، لأسباب ليس أقلها أن مثل هذه الادعاءات يتم بثها والترويج لها بقوة من قبل جهاز علاقات عامة يتمتع بموهبة عالية. كارثة يونيو/حزيران 2014 التي قتلت فيها قاذفة ستة جنود (خمسة أمريكيين وأفغاني)، بفضل أوجه القصور التكنولوجية. استجابت القوات الجوية بسرعة للمأساة من خلال دعوة مراسل «نيويورك تايمز» لقضاء رحلة ممتعة على قاذفة «بي-1»، لإلقاء نظرة وكتابة تقرير شامل ولكن بصورة إيجابية للقاذفة الفتاكة. حتى عندما تكون أوجه القصور في برنامج الأسلحة فظيعة للغاية؛ بحيث لا يمكن تجاهلها، يبتعد النقد الإعلامي عن قضايا، مثل شجب «الهدر» المفرط في البرنامج، وإن تطرق لا يحقق في كيف ولماذا أصبحت التكاليف الضخمة أمراً روتينياً.

الإنفاق لتحسين الميزانية

الحقيقة المهمة، بحسب الكاتب، هي أن التكاليف الضخمة يمكن أن تُعزى مباشرة إلى تكنولوجيا أكثر تعقيداً، وهي ناشئة عن «الفيروس العسكري الصناعي»، كما كشف عنها بالتفصيل في الثمانينات محلل البنتاجون فرانكلين «تشاك» سبيني. ولا يتم التطرق إلى ذلك مطلقاً. وهكذا، على سبيل المثال، أدى الإنذار الكبير الحجم الناجم عن استيلاء روسيا على أوكرانيا في عام 2014 إلى توليد مكافآت ضخمة في الميزانية للبنتاجون، لكن كانت القوات ضعيفة نسبياً من حيث القوة القتالية في البداية، كانوا مجرد 700 جندي في بولندا، لمواجهة جحافل الغزو الروسي المفترض.. بشكل عام، على الرغم من النمو الكبير في الإنفاق، يستمر الجيش الأمريكي في الانكماش؛ حيث يقل عدد السفن والطائرات والوحدات القتالية البرية مع مرور كل عقد من الزمان. من اللافت للنظر أن المزيد من المال ينتج على ما يبدو دفاعاً أقل. يبدو أن سبب هذا التناقض يكمن في الحوافز المالية لتطوير أسلحة ذات تعقيد متزايد، وخاصة الإلكترونيات، والتي بما أنها تكلف أكثر، تحقق أرباحاً أكبر للمصانع، بفضل عقود «الكُلفة الزائدة».

ويضيف المؤلف: لا يهتم الجيش الأمريكي بشكل عام بالحرب، إلا كوسيلة لتحسين الميزانية. وهكذا، عندما تم حث دونالد ترامب على إجراء زيادة عسكرية طفيفة في أفغانستان في عام 2018، وافق اجتماع مكون من كبار جنرالات المارينز على الخطة على أساس أنها لن تحدث أي فرق في الحرب، لكنها ستفيدنا في فترة الميزانية. أشار الكولونيل جون بويد، الطيار المقاتل السابق في القوات الجوية الأمريكية، إلى أنه لا يوجد تناقض بين مهمة الجيش المعلنة وعدم اكتراثه بالكفاءة التشغيلية، قائلاً: يقول الناس إن البنتاجون ليس لديه استراتيجية. إنهم مخطئون. لدى البنتاجون استراتيجية. وهي: لا توقف تدفق الأموال، أضف إليها أموالاً أخرى. بمجرد فهم هذه الحقيقة البارزة المتعلقة باستراتيجيتنا العسكرية واستيعابها، يصبح من الأسهل فهمها.

كما يشير إلى أن الوجود الأمريكي في أفغانستان كان ملحمة من الأخطاء الكارثية التي لا يمكن فهمها إلا إذا افترضنا أن الهدف الأساسي للجهد بأكمله هو عملنا جيداً في وقت الميزانية. ويقول في الختام في بعض الأحيان، يكون السعي المكشوف وراء المصلحة الذاتية بلا خجل، ولا ينبغي لأي مراقب أن يغفل عن السؤال الأكثر أهمية في الحروب: من المستفيد؟

ترجمة وعرض:

نضال إبراهيم

"حقوق النشر محفوظة "لصحيفة الخليج .2024 ©